مصارعة الثيران في الأندلس والمغرب

صلاح جرار*

كانت علاقة العرب بالحيوانات ضرورة أساسية من ضروريات الحياة منذ أيام الجاهلية، فكانت الإبل وسيلة النقل الرئيسية، والخيل وسيلة القتال، والأغنام والأنعام مصدرَ الغذاء، والكلاب وسيلة الصيد والحماية، وحمام الزاجل وسيلة الاتصال، والبوم والغربان وسيلة استشراف المستقبل، إلى غير ذلك.

ولعل العرب هم أكثر أمة ألفت عبر التاريخ كتباً في الحيوان فألفوا كتباً كثيرة في الإبل، وكتباً في الخيل، وكتباً في الطيور، وكتباً في الحيوانات المختلفة، وكتباً في البيطرة والبيزرة، من أشهر من ألف في ذلك : الأصمعي، والجاحظ الدميري وابن المرزبان وسواهم. كما احتلت الحيوانات مكانة مرموقة في قصيدة الشعر العربي، حتى غدا وصف الراحلة أو الناقة ركناً أساسلاً من أركان قصيدة المدح.

* أستاذ بكلية الآداب – الجامعة الأردنية

كذلك أصبحنا نجد وصف رقعة الصيد ركناً أساسياً آخر في قصيدة المدح وربما في غير قصيدة المدح، ويكفي أن نجد الشنفرى في لامية العرب يتّخذ من كل حيوانات الصحراء أصدقاء له، ويقارن بينها وبين بني البشر :

ولي دونكم أهلون سيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرْقَطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيْأَلُ

ومثلما دخلت الحيوانات في «فنّهم» دخلت أيضاً في تسلياتهم ورياضاتهم، فكانت الفروسية وسباق الإبل واسعة الانتشار في حياتهم!

وقد جمح خيال بعض الشعراء، فوصفوا مجابهات متخيلة بين أنواع مختلفة من الحيوان، ومواجهات متخيلة بين الإنسان وأنواع من الحيوان كمصارعة أسد أو ذئب أو نحوهما.

واعتمد الأدباء إنشاء قصص متخيّلة جعلوا الحيوانات أبطالها الرئيسيين، كما فعل ابن المقفع في كليلة ودمنة، وكما فعل إخوان الصفا في رسالة «تداعي الحيوانات على بني الإنسان» وغير ذلك. ومن أمثلة الشعر على الصراع بين الحيوانات، ما صوّرته قصيدة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه، حيث يقول :

والدّهرُ لا يُبقي على حَدَثانِهِ
شَبَبٌ[1] أفزّتْهُ الكلابُ مُرَوَّعُ
شَعَفَ الكِلابُ الضارياتُ فؤادَهُ
فإذا رأى الصُّبْحَ المُصَدَّقَ يَفْزَعُ
ويعوذ بالأرْطَى إذا ما شَفَّهُ
قَطْرٌ وراحَتْهُ بَليلٌ زَعْزَعُ[2]
يَرْمي بعينيه الغُيُوبَ وطَرْفُهُ
مُغْضٍ يُصَدِّقُ طرْفُهُ ما يَسْمَعُ

---

1 – الشبب : المسن من الثيران.

2 – الأرطى : شجر يعتاده البقر، والبليل : الريح الباردة، والزعزع : الشديدة التي تزعزع الشجر.

فغدا يُشَرِّقُ[3] مَتْنَهُ فبدا له
أُولى سوابِقِها قريباً تُوزَعُ
فاهتاج من فزع وسد فروجه
غبرٌ ضوارٌ وافيانٌ أجدعُ
فصرعنه تحت الغُبار وجنْبُهُ
مُتَتَرِّبٌ ولكلّ جنب مصرَعُ
حتى إذا ارتدّت وأقْصَدَ عُصْبَةً
منها، وقام شريدُها يَتَضَوَّعُ
فبدا له رَبُّ الكلاب بكفّه
بَيضٌ رِهَابٌ ريشُهُنّ مُقَزَّعُ
فرمى لينقذَ فَرَّها فهوى له
سَهْمٌ، فأنفذ طُرَّتَيْه المِنْزَعُ
فكبا كما يكبو فَنِيقٌ[4] تارِزٌ
بالخَبْتِ[5] إلا أنّه هو أبْرَعُ[6]

وهذا الوصف البارع للصراع بين الثور الوحشي وكلاب الصيد ثم تدخُّل الصيّاد يكاد يطابق إلى حد كبير ما كان يجري في ميادين الرياضة في غرناطة، ممّا سنبينه فيما بعد، إلا أن في هذه القصيدة وصفاً متخيلاً، وأن في القصائد الأندلسية وصفاً لمصارعة حقيقية معدٌّ لها مسبقاً وفق أصول متبعة.

ومن الشعر الذي يصف الصراع بين الإنسان والحيوان قصيدة المتنبي في وصف مواجهة بدر بن عمّار مع أسد، ومطلعها :

في الخدّ إن عزم الخليطُ رحيلا مطر تزيد به الخدود مَحيلا

---

3 – يشرق متنه : ظهره للشمس.
4 – الفنيق : فحل الإبل، التازر : اليابس.
5 – الخبت : المطمئن من الأرض.
6 – «المفضليات»، للمفضل الضبّي ص 425–427، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، 1964.

ومنها :

وردٌ إذا ورد البحيرة زائراً

ورد الفراتَ زئيرُه والنّيلا

وإذا نظرنا في التاريخ العربي القديم وقفنا على نصوص تدل على أن العرب استخدموا هذا النوع من التسلية، ففي كتاب «الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية» لحميد الهمداني [7] رسالة من يحيى بن عبد الله العلوي إلى الخليفة العباسي الرشيد يقول له في فصل منها : «تارة تُغري بين البهائم لمناطحة كبشٍ أو مناقرةِ ديكٍ أو مهارشةِ كلبٍ».

وفي «رسالة التوابع والزوابع»[8] يقول ابن شهيد عن الإوز في الأندلس : «وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف، وحبّبتها إلى كل غطْريف، فاتّخذَتْها السادةُ بأرضنا واستهلك عليها الظرفاء منّا ورَضيَتْ بدلاً من العصافير، ومتكلِّمات الزرازير، ونُسيَت لذةُ الحمام ونقارِ الديوك، ونطاح الكباش».

ويُفهم من عبارة ابن شهيد (ت 426هـ) أن الأندلسيين كانوا يتخذون نطاحِ الكباش ونقار الديوك تسلية لهم.

وقد عرَفَ الأندلسيون كذلك «حدائق الحيوان»، فتذكر المصادر أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (ت 350هـ) اتخذ في مدينة الزهراء محلات للوحش فسيحة الفِناء، متباعدةَ السياج، ومسارحَ للطيور مظللة بالشباك»[9].

وهناك عوامل ساعدت الأندلسيين على العناية بمصارعة الثيران منها :

1 – أن هذه الرياضة كانت معروفة في الأندلس إبان العهد الروماني قبل مجيء المسلمين حيث يذكر بارنابي كونراد Barnaby Conrad مؤلف كتاب ماتادور *Matador* (ط 1970) أن يوليوس قيصر ربّما

7 – مخطوط بمكتبة الجامعة الأردنية تحت رقم 1956، 1\187.

8 – تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1980، ص 150.

9 – «نفح الطيب» للمقري 1\571 تحقيق د. إحسان عباس.

تكون له يد في إشراك الثيران في ألعاب السيرك في إشبيلية القديمة[10].

كما يذكر بارنابي كونراد أن الإسبان إبان الوجود الإسلامي في الأندلس كانوا يعرفون مصارعة الثيران، ويذكر أن السيد الكمبيطور Rodrigo Diaz de Bivar صاحب الملحمة المشهورة كان أول من نظم حفلاً لمصارعة الثيران في سنة 1090م[11].

2 – أن الأندلسيين قد ورثوا عن سكان إسبانيا القدماء من رومان وغيرهم مسارح وميادين رياضية في معظم مدن الأندلس، ومن أمثلة ذلك ما يقوله ابن سعيد الأندلسي عن حصن مُرْبَيْطَر من حصون بلنسية:

«هي من المدن الرومية المشهورة بالأندلس، فيها آثار عظيمة وأعظمها الملعب الذي أمام قصرها، وهو صنوبري الشكل، قد ارتقى بأحكم صنعة درجةً درجةً، إلى أن تكون الدرجةُ العليا لا يجلِس فيها إلا الملك وحده، ثم ما انحدر منها اتسع المكانُ، بحسب الطبقات إلى أن تكون الدرجة الأخرى لجمهور من يلوذ بالملوك من غير الخاصة المقربين.

3 – كثرة انتشارالفروسية وألعابها المختلفة عند الأندلسيين فكانت مصارعة الثيران صورة من صور التدريب على الفروسية والمطالعة وأعطتهم فرصة للتدرب على القتال، بالإضافة إلى ميلهم إلى الترف والتسلية الرياضية.

4 – كثرة انتشار الثيران في إسبانيا والأندلس والمغرب، وهناك الكثير من الأدلة على أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يحوزون أعداداً كبيرة من الثيران سواء مما في بلادهم أو مما يحصلون عليه من غنائم الحرب.

فقد ورد في كتاب «البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي أن عبد المؤمن بن علي «أعطى أربعة أولاد توفي أبوهم في دار قريبة من تلمسان، أعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من

---

10 – Bullfighting. art, Americana Encyclopaedia.

11 – نفسه.

البقر...»[12].

ويتحدث ابن عذاري في موضع آخر عن أحد انتصارات أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في شنترين سنة 580هـ نقلاً عن أبي مروان ابن صاحب الصلاة: «لقد رأيت في هذا اليوم ثوراً بيد عربي باعه بدرهم واحد، ولقد اشتريت مع أصحابي بقرة سمينة بثلاثة دراهم وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم» (ص 160).

وفي موضع آخر يتحدث عن هجوم سنة 852هـ قام به القائدان أبو إسحق إبراهيم بن عبد البرّ وأبو القاسم بن السراج على الحدود الغربية لمملكة غرناطة «بقصد الغارة على أرض الحرب في طلب البقر إذ كانت العيون المترددة لأرض الحرب تجدها سارحة إلى أحواز أرض المسلمين منتجعين بها مواقع القُطْر من تلك الجهات»[13].

ويضيف ابن عاصم أنه في أثناء خروج القائدين التقيا بجيش قشتالي عند مربلّة، فوقع من القشتاليين مائة وأربعون أسيراً «أرخص فداؤهم البقر بالوطن»[14].

وورد في كتاب «نُفاضة الجراب» للسان الدين بن الخطيب[15] في سياق الحديث عن سور موسى من مجامع دكّالة بالقرب من مراكش يقول في وصفه «الغاص على انفساح مداه بالرّاغية والثاغية والصاهلة والناهقة، البالغ عددُ أزواجه لإثارة الأرض ومعالجة الحرث ثلاثةَ آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه».

ويفهم من هذه الروايات وغيرها أن بلاد الأندلس والمغرب كان فيها من الثيران والبقر أعداد كبيرة.

ولكن لم يكن قبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي أن تنازل

---

12 - «قسم الموحدين»، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الثقافة\الدار البيضاء 1985. ص 80-81.

13 - «جنة الرضا» 2\287.

14 - نفسه 2\288.

15 - 2\74.

هؤلاء الفرسان مع الثيران واحداً مقابل واحد[16]. وقد تضافرت هذه العوامل فدفعت أهل الأندلس إلى ممارسة مصارعة الثيران.

1 - في الأندلس :

عرف الأندلسيون في عصر بني الأحمر مصارعة الثيران، ولعل ذلك مرتبط بميل الأندلسيين في ذلك العصر إلى الإكثار من الاحتفالات والمبالغة فيها واستغلال كل مناسبة دينية أو اجتماعية أو وطنية من أجل القيام بتلك الاحتفالات، وكانت الاحتفالت تقوم أساساً على مباريات الفروسية والعروض البهلوانية ورياضة الرمي والرقص والإنشاد، وهذا ما تبيِّنه القصائد الكثيرة التي قيلت في وصف تلك الاحتفالات وبخاصة قصائد لسان الدين بن الخطيب وابن زَمْرَك وأبي إسحق النميري وغيرهم.

ويستفاد من قصيدة للسان الدين بن الخطيب في وصف مجموعة من الألعاب الرياضية جرت بمناسبة إعذار ابن السلطان الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر، أن هذه الألعاب ومن بينها مصارعة الثيران قد أقيمت على ملعب روما في القديم.

ويستفاد من قصيدة لأبي إسحق إبراهيم بن عبد الله ابن الحاج النميري (ت بعد 768هـ) في وصف هذه الأنواع من الرياضة، أن الهدف منها كان التدرّب على القتال والمطاعنة استعداداً للجهاد، حيث يقول (عن الغني بالله) :

فذلك منه للجهاد تَدَرُّبٌ

سيسقي به الحِزْبَ الذي دانَ بالكُفْرِ[17]

ولولا وصول بعض القصائد التي تصف احتفالات الأندلسيين بمناسباتهم الدينية والاجتماعية والوطنية لضاع دليل مهم من أدلة انتشار هذه الرياضة عند الأندلسيين.

---

16 - Encyclopaedia Americana, art. Bullfighting

17 - «قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبد الله بن نصر»، مخطوط رقم Or .5670 في المتحفغ البريطاني، ص 25.

ومن هذه القصائد قصيدة لعبد الله بن لسان الدين بن الخطيب قالها في إعذار ابن السلطان الغني بالله، مطلعها :

أثِرْها عزمة تُنْضي الركابا

وإن دَمِيَتْ لها العينُ انسكابا[18]

ويصف عبد الله بن لسان الدين بن الخطيب الألعاب الرياضية التي جرت في تلك المناسبة، وقدم لها لسان الدين بأنها مما «جرت عادةُ ملوك الأندلس في مثله»[19]، مما يعني أن مصارعة الثيران كانت عادة جارية عند الأندلسيين منتشرة عندهم، ومن أبيات هذه القصيدة :

وطارَدْتَ الصُّوارَ بكلِّ ضارٍ

كما أتْبَعْتَ عفريتاً شِهابا

ضَرَبْتَ به على الآذانِ منها

فلم تَسْطِعْ حراكاً واضطرابا

ومعصوبِ الجبين بتاجِ رَوْقٍ

يروعُ خُوَارُهُ الأسْدَ الغِضابا

تَعَرَّفَ أنَّ تحتَ الأرضِ ثَوْراً

فرام بأن يَشُقَّ له التُّرابا

وَكَلْتَ به هضيمَ الكَشْحِ أجْنى

حديدَ النابِ تَحْسَبُها حِرابا

تباعَدَ مجمعُ الشّدقين منه

وسال الموت بينهما لُعابا

فأثبته كوحيِ الطَّرْفِ حتّى

تَوَثَّقَ منه جازِرُهُ غلابا

وصاحَ به الصُّوارُ وقد رآه

حبيسَ الكَلْبِ قد مُنِعَ الإيابا

---

18 - «الإحاطة في أخبار غرناطة»\لسان الدين بن الخطيب\ نصوص جديدة لم تنشر، تحقيق عبد السلام شقور، 128، «نفح الطيب» للمقري 7\295، تحقيق د. إحسان عبّاس.

19 - «الإحاطة\نصوص جديدة» 128.

فغضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ

فلا كعباً بلغْتَ ولا كِلابا[20]

وأما القصيدة الثانية فهي للسان الدين بن الخطيب قالها في مدح سلطانه الغني بالله، وقد قدّم لها لسان الدين بمقدمة ذات أهمية خاصة في التعرف على جوانب من مصارعة الثيران، حيث يقول :

«وقوْلي في امتداح سلطاني لمّا احتفل لإعذار ولده واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتّخَذ في الجو المسميّ بالطَّبْلَة، وأرسل جوارح الأكلبِ العظام، المجتلبة من أرض ألان، خلْف فحول البقر الطاغية الشُّرَسِ، تمسكها من آذانها وأجنابها، حتى تتمكَّن منها الرجال»[21]. ويشتمل النص على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها والطلبة التي نصبها في الهواء للفرسان يرسِلون العصي إليها، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها»[22].

وأما مطلع القصيدة فهو :

شَطَحَتْ وفودُ الليلِ بانَ بهِ الوَخْطُ

وعَسْكَرُهُ الزِّنْجِيُّ هَمَّ به القبْطُ

وأما الأبيات التي تصف مصارعة الثيران، فهي :

وأغْرَيْتَ بالبُهْمِ العِلاجَ تحفياً

فلم يُذْخَرِ الشيءُ الغريبُ ولا السِّمْطُ[23]

أتَتْ صورةٌ معلولةٌ عن مِزاجها

وأصلُ اختلافِ الصورةِ المزجُ والخَلْطُ

قضيْتَ بها ديْنَ الزّمان ولم يَزَلْ

أكدُّ كذوبَ الوعدِ يلوي ويَشْتَطُّ

وأرسلْتَ يوم السَّبْقِ كلُّ طِمِرَّةٍ   كما قذفَ الملمومةَ النارُ والنِّفطُ

---

20 – وردت الأبيات في «الإحاطة\نصوص جديدة» 129–130، و«نفح الطيب» 7\297.

21 – «الإحاطة» 4\482 تحقيق محمد عبد الله عنان.

22 – «نفح الطيب» 6\459.

23 – السمط : الخفيف الجسم.

رنت عن كحيلٍ كالغزال إذا رنا

وأوفتْ بهادٍ كالظليم إذا يَعْطو

وقامت على منحوتةٍ من زبرجدٍ

تخطّ على الصُمِّ الصِّلاب إذا تخطو

وكلّ عتيقٍ من تَمَاثِلِ رومةٍ

تأنّقَ في استخطاطِهِ القسّ والقِمْطُ

وطاردْتَ مِقْدامَ الصُّوارِ بجارحٍ

يُصابُ به منه الصِّماخُ أو الإبطُ

متينُ الشّوا في رأسه سمهريّةٌ

مُقَصِّرةٌ عنهنّ ما يُنْبِتُ الخَطُّ

وقد كان تاج فلمّا تعلّقا

بسامِعتَيْه زانه منهما قُرْطُ[24]

وهو وصف جميل لمعركة يتدافع فيها الفرسان لمصارعة الثور وقد احتدم غضباً وأنهكه التعب فيتمكنون منه برماحهم.

ويتضح من التصدير لهاتين القصيدتين أن هذه المصارعة لم تكن تحدث مصادفة بل كان يُعَدُّ لها مسبقاً بدليل حرص بني الأحمر على اجتلاب الكلاب الرومية الخاصة للمصارعة من بلاد الروم.

ولعل استخدام قطعة القماش الحمراء في أثناء مراوغة الثور تقترن باللون الرسمي لدى دولة بني الأحمر في غرناطة، وهو اللون الأحمر، فقد ورد في القصائد التي تصف احتفالات بني الأحمر التي كانت تجري فيها مصاعة الثيران، وصفٌ لأعلامهم الحمراء التي يرفعونها في أثناء الاحتفالات، فمن قصيدة لابن زَمْرَك الغرناطي قالها سنة 764هـ في إحدى الإعذاريات السلطانية ويصف الألعاب الرياضية يشير ابن زمرك إلى اللون الأحمر المعتمد شعاراً لبني الأحمر، قائلاً :

ولك القبابُ الحمرُ تُرفَعُ للنّدى فترى العمائم تحتها كالأنجم

وله من قصيدة في إحدى هذه المناسبات :

---

24 - «الإحاطة» 4\482، «نفح الطيب» 6\462.

أبديتَ من حسن الصنيع عجائباً
تُروى على مرّ الزمان وتُنْقَلُ
خفقتْ به أعلامُكَ الحمر التي
بخفوقها النَّصْرُ العزيزُ موكَّلُ

ويشير ابن الحاج النميري في مناسبة إعذارية أخرى إلى البنوذ الحمر قائلاً :

لبسوا قميصَ البأس أحمَرَ وارتدوا
بردائِهِ والخيلُ ذاتُ قِماصِ[25]

ولعل هناك علاقة بين القبّة الحمراء التي ذكرها شعراء الأندلس والتي تقام إبّان الاحتفالات، وبين ما يعرف حالياً باسم Barrera وهو سياج من خشب أحمر يوضع حول الحلبة التي تجري بداخها مصارعة الثيران.

ومما قاله S.P. Scott عن مصارعة الثيران عند مسلمي الأندلس في كتابه : History of Moorish Empire in Europe[26] :

وكانت أولى تسلياتهم التي تحمل هذا الوصف هي مصارعة الثيران التي لا نجد لها إلا القليل في مشهد المصارعة المعاصرة التي تمثل نتيجتُها الدمويةُ والوحشيةُ المستمرة الملمحَ الصارخ لها. بينما اللاعبون المسلمون كانوا جميعهم من أصول أرستقراطية نبيلة، وكانوا دائماً ركوباً بشكل رائع مدهش، وكانت عدّتهم بالغة الفخامة. ولم يُسمَح لهم باستخدام أي سلاحٍ سوى رمح قصير ثقيل، رأسه مغلف بقطعة من الجلد.

وقد تطلّبت قواعد هذه الرياضة بأن يُقتَل الثور بطعنة واحدة في العمود الفقري أمام الكتف، مما يتطلّب مهارة عظيمة وقوة فائقة غير عادية، وإذا وقعت الضربة في مكان آخر فإن الفارس يُجبَر على ترك الحلبة، وإذا كُسِرَ سلاحه أو فُقِدَ فإنه يُنظَر إليه على أنه اقترف عاراً لا يمكن محوه.

25 – قرائن القصر 40.

26 – ط. لندن 1904، ج 3\ص 667-668.

وكان الذكاء وتدريب الفرس وبراعة راكبها هي الضمانات الكفيلة بعدم وقوع الكارثة، ولكن تضحية الفارس في بعض الأحيان كانت تذكر الباقين على قيد الحياة بالأخطار المخيفة للمواجهة.

ولكونهم مدرّبين منذ الطفولة المبكرة على ركوب الخيل واستخدام الرماح ومعتادين على جميع أنواع التمرينات الرجولية، ومهرةً وخبراء في فنون المباريات والسباق، فإن مسلمي إسبانيا وجدوا في مصارعة الثيران ذروة الاستمتاع إلى جانب متعهم المادية والإثارة الناجمة عن الحروب.

وجاء في الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica art. Bullfighting (ط 1966) «عدل المسلمون الذين جاءوا من إفريقا والشاميون الذين اجتاحوا الأندلس سنة 711 ميلادية، عدّلوا بشكل تدريجي الألعاب الموجودة بأن أضافوا إليها المذاق الأرابيسكي الراقي والخيال الشرقي الرائع. وبما أن المسلمين عرفوا بالفروسية فإن كرامتهم استدعت أن يأخذوا الرمح من تابعيهم بحيث يصبح هؤلاء التابعون أقلّ منهم شأناً في مصارعة الثيران ببساطة ينازلون الحيوانات على الأقدام، بحيث يغدو سادتهم الذين يمتطون الخيل قادرين على تأدية دورهم بصورة أفضل».

وقد أعاد المسلمون بناء المسارح الرومانية المتداعية وتزيينها في إشبيلية وقرطبة وطليطلة وطركونة وقادس.

وقد تطورت المباريات نتيجة للمنافسة بين زعماء المغاربة والفرسان المسيحيين من سكان الأندلس.

وكانت الاحتفالات تُقام في الميادين العامة التي أخذت حلبات مصارعة الثيران أسماءها منها، وربما أقيمت في الهواء الطلق خارج القرى.

أما المدن الرئيسية فقد تباهت بما كان لها من مسارح خاصة بذلك.

وبعد أن أُخرِج المسلمون من إسبانيا على يد فرديناند وإيزابيلا سنة 1492م استمرت مصارعة الثيران بواسطة الرماح الرياضيةَ المفضلة للأرستقراطية».

2 – مصارعة الثيران في المَغرب

وكانت هذه المصارعة تجري في المغرب وفق رسوم خاصة لكن أبطالها : الثيران، والفرسان والأسود بدلاً من الكلاب الرومية التي كان يستخدمها أهل الأندلس.

وقد عرفت عند أهل المغرب مصارعة الأسود إلى جانب المصارعات التي تقع بين الثيران والأسود ويشترك فيها الفرسان.

ففي كتاب «البيان المُغرب» لابن عذاري المراكشي[27] في الحديث عن استيلاء عبد المؤمن ابن علي على مملكة بني حمّاد في بجاية سنة 547هـ وطلب ابنِ حماد الأمان واستقرارِه بمراكش، يصف ابن عذاري حال ابن حماد قائلاً :

«اشتغل بالطِّراد والصيد، وتخاملَ وتجاهلَ، واستعمل شباكَ الحديد لصيد الأسود الضواري، فكان يتحيّل عليها فيصيدها ويُدخلها في أقفاص حديد ... وكان قد سبق إليه في ذلك المجلس زرزور فتكلم بين يديه بأنواع من الكلام، فارتجل أبو علي الأشيري أبياتاً من الشعر في صفةِ الحال بالمجلس المذكور، وهي :

أنِسَ الشِّبْلُ ابتهاجاً بالأسدْ
ورأى شِبْهَ أبيه فَقَصَدْ
ودعا الطائرُ بالنصر له
فقضى حقّكُمُ لمّا وَرَدْ
أنْطَقَ الخالقُ مخلوقاتِهِ
بالشهادات فكل قد شهدْ
إنك القائم بالأمر له
بعد ما طالَ على الناسَ الأمَدْ

وللوزير الشاعر أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد

27 – قسم الموحدين، ط دار الغرب الإسلامي ص 42–47.

الوقّشي (ت 574هـ) قصيدة يصف فيها احتفالاً عاين فيه قتلَ أسدٍ هائل المنظر في مراكش سنة 564هـ يقول في بعض أبياتها[28] :

جَهْمُ المحيّا إن تبسم هيْبَتُهُ
ومن العجائبِ هيْبةُ المتبسّم
ويقالُ كلُّ الصَّيْدِ في جَوْف الفرا
وأرى الفِراءَ لديه بعضَ المَطْعَم
وكأنّما هو ناظرٌ عن زئبقٍ
وكأنّما هو كاشرٌ عن مِخْذَم
وكأنّ لَبْدَتَهُ بقيّة فروةٍ
قَصُرَتْ على طولِ الزمانِ الأقدَم
لمّا تمرّد في العرينةِ فُتِّحتْ
أبوابُها فانساب مثل الأرْقَم
وعلا زئيرٌ منه حتى خلتُهُ
كالفَحْلِ يَهْدِرُ عِنْدَ شُولٍ هُيَّم
وظنَنْتُ أن الرعدَ من حيثُ الحَيا
حتى سمعتُ اليومَ رعداً من فَم
وتناولتْ زُرْقُ الأسنّة زَرقَهُ
حتى تبدى شكْله كالشَّيْهَم

وقال كذلك : «ولي في هذا المعنى (قتل الأسد) من كلمة قُلتُها عند وفادتي على حضرة تونس – أيّدها الله – رسولاً عن والي بلنسية ودانية –أبي جميل بن سعد – وقد أُحضِرتُ لمثل ذلك في أواخر شعبان سنة ست وثلاثين وستمائة :

تحِنُّ إلى ملعبٍ للظُّبـاء
بكثبانِ رامةَ أو غُـرَّبِ
فهلّا إلى مَلْعَبٍ للأسودِ
سَعِدْتَ بمنظرهِ المُعْجِبِ؟

28 – «الحلة السيراء» 2\261–262.

يُقام الجهادُ به والجِلادُ
لكلّ فتىً مِدْرَهٍ مِحْرَبِ
ويضرى على الفَتْكِ بالضّاريات
فإن غالَبَ القِرْنَ لم يُغلبِ
فمِنْ أسدٍ شَرِسٍ مُخْنِقٍ
ومِنْ نمرٍ حَرِدٍ مُغْضبِ
تَصُمُّ المسامعَ من زَأْرِها
عواديَ كالضُمَّرِ الشُزَّبِ
وتنبو العيونُ لإقدامِها
مذرَّبةَ الناب والمِخلبِ
كواشرُ عن مرهفاتٍ حدادٍ
متى تَصْدَعُ الهامَ لا تَنْشُبِ
نيوبٌ نبتْنَ من النائبات
وأزْرَيْنَ بالصّارمِ المِقْضَبِ
تنوء ثقالاً ولكنها
أخفُّ وثوباً من الجُنْدُبِ

ومنها في وصف مُلاعِبٍ لها من أهل الثّقافة، وكانت في ذلك اليوم المبارك أربعةَ آساد ونمرَيْن، يُدَحْرِج إليها كرة متصلبةً من خشب محكمةَ الصنعة، تحجُبُه من بأسها وهي رابضة، وبيده حدائد طوالٌ في نهاية الإرهاف معدةٌ لها. فإذا أحسّت به وثب على الكرة فألقم أفواهها تلك الحدائد، ودحرج الكرة، فتباعدت عنه تمُجُّ ....

ومقتحمٍ غمراتِ الرّدى
إذا ما ادّعى البأسَ لم يَكْذِبِ
يلاعبُها حيث جدّ الحِمامُ
فتفرعُ منه إلى مَهْرَبِ

يكُرُّ عليها ولا جُنّةٍ
سوى كُرةٍ سهلة المجذَبِ
يدحرجُها ماشياً ثِنْيَها
على حذَر مشيةَ الأنْكَبِ
عجِبتُ لها أحْجَمَتْ رهبةً
وأقدمَ بأساً ولم يرهَبِ
وَقَتْهُ الأواقي على أنّه
تسنّمها صعبةَ المَرْكَبِ
وثاوٍ بمطبَقَةٍ فوقه
متى تَطْفُ هامَتُهُ ترسُبِ
يُهَجْهِجُ بالليث كيما يهيجَ
ويأوي إلى الكهف كالثعلب
كذلك حتّى هوتْ نَحْوَها
عُقابُ المنيّة من مرْقَبِ
وعاجَتْ عليها قواسي القِسِيِّ
فعبَّتْ من الحيْن في مَشْرَبِ
وشالَتْ هناكَ بأذنابها
لِياذاً من العَقْر كالعَقْرَبِ
فيا لِقَسَاورَ قد صُيِّرَتْ
فَرَائِسَ للأسْهُمِ الصُيَّبِ

ويورد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر في كتابه «نثير الجمان»[29] في الترجمة لأبي العبّاس الفقيه الكاتب أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنّان الأنصاري (ت 792هـ) من كتّاب الدولة المرينية، مكناسي الدار أندلسي الأصل، قصيدة مطولة للأنصاري في مدح أبي عنان فارس المريني، ويصف قتْل الأسد بين يديه بقصره، والثورَ المقاتل للأسد، والأكرة، والمخاتِلَ، وغير ذلك مما يُلعَبُ به مع الأسد، منها :

29 – ص 327–335.

وتهيجُ منه الحربُ لَيْثَ ملاحمٍ
ويقرُّ به الحِلْمُ طَوْدَ عَلاء
هلاّ سألتِ به الغُيوثَ فإنهُ
مهما استهَلّتْ فاضحُ الأنواءِ
وسلِ الليوثَ تُجِبْك صِدقاً إنّها
أدْرى بفتكة غَضْبِه المضّاءِ
للّه يومٌ في حِمَاهُ مفضض الـ
إصباحِ منه، مُذَهَّبِ الإمساءِ
رَتَعَتْ به الأبصارُ بين عجائبٍ
رقّتْ فراقَتْ كلَّ طَرْفٍ راءِ
وأجشُّ منهرِتِ اللّها نَهْدِ الطّلا
عَبْلِ الجزالةِ مُحْكَمِ الأنساءِ
طاوي الحشا رحب المقدّم عابس
متطلّع عن جذوتي ظلماءِ
بل كوكَبَيْن تقارنا بجبينِهِ
لحدوثِ ما نبأٍ مِنَ الأنباءِ
وأرى الأهلّةَ في البدورِ وإنّما
يعتدُّها للأزمةِ الدّهْماءِ
يفترُّ لا لتبسُّم يعتادهُ
ويعانق الأقرانَ لا لإخاءِ
قد طالما سَهرتْ مخافة بأسه
دون الخلالِ طلائعُ الأحياءِ
قذفت به الأقدارُ بين مُخَاتلٍ
ومُكابدٍ ومُنَاجزٍ ومُنَاءِ
رفعوا لموْقتِ حَتْفِهِ كرةً فلم
تُبْرِزْ له إلا طويلَ شقاءِ

جاؤوا به شمساً تيمّمَ بيتُها

منه وإنّ الليثَ بيتُ ذكاءِ

عجباً لها جازَتْ إليه الثُّور لَم

تَجْنَحْ إلى السَّرطَانِ والجَوْزاءِ

وَمُعَدّلو الشُّبكات بعد تَرَدّدٍ

حكَموا عليه بشدةٍ ورخاءِ

ألقوْهُ في التابوت ثم تعمّدوا

إرسالَهُ، أبقوْه لا لبقاءِ!

لكنّ أربابَ الصفائح صمّموا

فقضَوْا بداهيةٍ له دَهْيَاءِ

هذا وقد طلعتْ بوشْك حمامه

شُهُبُ الأسنّة جَمَّة الأضواءِ

طلعَتْ بمفرقِهِ الأهلّةُ إنها

أبداً لها منه مَحَلُّ ثواءِ

يا ليثُ لا تأمنْه ختلاً إنه

ليكرُّ بعد تحيُّز وثناءِ

لا يطمعنْك إن أجدْ منكّباً

لمّا دلفتَ له حثيثَ عِداءِ

ما ذاك إلا لو علِمتَ تأثُّماً

مِنْ قَطْع أرحامٍ وسَفْك دماءِ

وسلِ الجواميسَ البهيمَ أديمُها

تُخْبِرْكَ فهي له من الشهداءِ

فلقد شهِدْنَ أخاك لما أمَّهُ

كالسَّهْم قاسَمَهُ مدى المثْناءِ

أنحى عليه بصدمةٍ ثوريةٍ

تركَتْ أسامَةَ واهيَ الأنحاءِ

وبطعنةٍ نجلاءَ أنهرَ فَتْقُها
تَحْتَ الأديمِ عريضةٍ جوفاءِ
شكَّتْ فريصتَهُ فولّى ناجياً
يبغي النجاةَ ولات حين نجاءِ
ثم استكان يردِّدُ الزفرات عَنْ
وهنٍ وتلك شكاية الضُّعفاء
حتى أتته العينُ عائدةً وما
إن كنَّ قبلُ له من السُّجَرَاءِ
رحِمَتْهُ - وهي عُداتُهُ - ولحادثٍ
متفاقمٍ ما رَحْمَةُ الأعداءِ
فاحذرْ لمصرع تَرْبِكَ الماضي ولن
يثني الحذارُ مقدَّراً بقضاءِ
يا ليثُ سامَتْكَ الهوانَ بنو الوغى
فاصْبِرْ لِمَا سامَتْ بنو الهيجاءِ
تلك الأسنَّةُ والقنا أتخالُها
أزهارَ قُضبِ السَّرْحَة الغيْناءِ
والبيض لامعةٌ وما هي - فاتئدْ -
بجداول العرِّيس ذي الأفياءِ
ومصارعُ الآساد ليستْ هذه
بمصارع الإدلاجِ والإسراءِ
دارُ الخلافة يمَّمَتْ ساحاتِها
صِيدُ الملوكِ لخفيةٍ ورجاءِ

... إلخ

....

... إلخ

وإليكها عذراءَ تُزهَى نخوةً
بحُلى محاسِنِها على العَذْراءِ

أسديةٌ لم تَدْرِ ما يمنٌ ولم
تُنْسَبْ مجاوَرَةً إلى الأذواءِ

ويضيف المؤلف في نهاية القصيدة قائلاً :

«وعلى هذه القصيدة حكاية : وهي أن صاحبها أبا العبّاس لما رفعها لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبي عنان وافق المجلس أن الشريف أبا عبد الله محمد بن القاسم الحسيني العراقي رفع للمتوكل أبي عنان قصيدة مثلها في الوزن والقافية ... إلخ».

ويورد إسماعيل بن الأحمر في «نثير الجمان»[30] قصيدة أخرى لابن عبد المنّان الأنصاري يمدح بها المتوكل أبا عنان المريني، ويصف المصارعة بين الثور والأسد والاستعدادات التي تمهد لذلك، ويقدم ابن الأحمر لها بمقدمة عن تلك الرياضة فيقول[31] :

«وأنشدني (أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنّان الأنصاري الخزرجي (ت 792هـ) أيضاً لنفسه يمدحه (المتوكل أبو عنان المريني) ويصف قتل الأسد بين يديه. وكان السلطان مولعاً بقتل الأسود فسيق إليه يوماً فقتل بين يديه بقصره من دار الإمارة المدينة البيضاء، والسلطان المتوكل جالس بأعلى مكان في الميدان.

ووصف فيها أيضاً شبكة صيد الأسد في الفلاة، نُصِبَتْ في ذلك اليوم بالقصر، واصطادوا بها الأسد بين يديه. ووصف فيها أيضاً الثور الذي كان من عادته قتلَ الأسود في ذلك الموطن. ووصف فيها أيضاً بعد فراغه من قتل الأسد الناعورةَ الكبيرة والنهر والروض المسمّى بالمصارة وهو بإزاء القصر. وهي :

ألِفَ الجوى مُذْ بان سكّانُ اللّوى
صبٌّ يهيج غرامَهُ نفَسُ الصّبا

....

ذلّت لبطشته الأسودُ وإنها
لتذلُّ لولا عزّ بطشته الطُّلا

---

30 – ص 343–350.

31 – «نثير الجمان» 343.

وضُبارمٍ رَحْبِ اللَّبَان تقلُّه
صُهْبٌ متينٌ خَلْقُها، عَبْلِ الشَّوى
يفترُّ عن نابٍ كأطراف القَنَا
بيضاً وينضو مِخْلَباً حدُّ الشَّبا
فتكتْ به بالقصر سُمْرُ رِمَاحِه
بأكُفَّ أُسْدٍ دوَّختْ أُسدَ الشَّرى
أمسى صريعاً والدِّماءُ سُلافةٌ
أتُراه سُكْراً مال من تلك الطِّلا
وثنى على زَأْراتِهِ كَشْحاً وقد
كانت يردِّدها فُرادى أو ثُنا
لكنَّ ألسنة القواضِبِ أظهرتْ
ما أضمرتْ جنباه من سِرِّ الحشا
ولقد رماه قبل مصرعه الرَّدى
من معضلات (مُكَابديه) بما رمى
ومخاتلٍ في جَوْف دائرة طَوَتْ
أضلاعُها منه على شَهْمٍ فتى
يحكي بها رألاً ببيضةِ سَبْسَبِ
لم تَنْفَرِجْ عنه فأنفذها كوى
يمشي الهوينا وسطها فتقلُّهُ
عدواً وما إن تشتكي ألم الوجى
حَسِبَ الغضنفرُ مرتقاها كعبةً
فدنا يُطيل بها الطوافَ وقد سعى
ولربما ألقى عليها لامساً
بأكفِّهِ وَسْماً وقبَّل إذ سما
لكنه خبثَتْ سرائرُه فلم
يُحْمَدْ على الإلمام منه بها الجزا

عجباً له ولجأش طفلٍ لم يهبْ
أُسْدَ الشَّرى، وقد استشاط وقَرْدَدا
ما زال يدعو للنزال أُسامةَ
ولقد أشار بظلفِهِ لما دعا
ولقد أراه مكانَ مصرعه وقد
أدمى بساح القصر ينكُتُ في الثَّرى
ولقد أطال وقوفَهُ مستقبِلاً
حذرَ الهِزَبْرِ مبارزاً حتى انبرى
وعدا له والظنُّ يقضي إن يُرى
وقد اعتلاه فكان عكساً ما قضى
جالتْ عليه صدمةٌ من حارثٍ
تُنْسيكَ صدمةَ حارثٍ يوم الوغى
أعجِبْ بها من صدمةٍ قد عفَّرتْ
لَبَدَ الهِزبر وأوهنَتْ منه القُوى
لا تَلْحُ رَوْقَ الثور إنْ أبْصَرْتَه
عن جانب الليثِ الطعينِ وقد نَبَا
ما كلٌّ دون كلاه لكن ساعةٌ
بقيتْ له ولكل عُمْرٍ منتهى
فدعتْه في دعةٍ إلى أمثالها
ولتعذرنَّ الليث يا مَلِكَ الهُدى
أعدى فريسته عليه قولك «ابْـ
قَ» لذا وقولك للغضنفر (لا لعا)
عاجلْتَ ذا هُلْكاً فلم يَعْجَزْ وقد
أبقيتَ ذا مَنّاً فجانَبَه المُنى
إن الإله قضى بأن يجْري القضا
طوعاً كما شاء المطيع المرْتَضَى

وعُلاكمُ ما حارثٌ بمقاومٍ

لأبيه لولا أن أرَدْتَ به الردى

ولقد رأتْ منه العيونُ عجيبةً

راقتْ وقد أبلى النواظرَ والنُّهى

فابحْهُ جنّات المصارةِ خالداً

فيها فبالجنّات يُجْزَى ذو البَلا

... إلخ

وقد أورد إسماعيل ابن الأحمر هذه القصيدة في كتاب آخر له هو «نثير فرائد الجمان»[32] وقدم لها بقوله متحدثاً عن ابن المنّان الأنصاري : «أنشدني لنفسه هذه المقصورة يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله أبا عنان فارس المريني ملك المغرب، ويصف قتل الأسد بين يديه :

ألِفَ الجوى مُذْ بانَ سكّان اللّوى

صَبٌّ يُهيج غرامَهُ نَفَسُ الصَّبَا

***

وقد وصف الشعراء الأندلسيون تلك الرياضة التي كانت تجري في الدولة المرينية، وممن كانت له مساهمة واضحة في وصفها، لسان الدين بن الخطيب. ففي حديثه عن ملك المغرب أبي عنان بن أبي الحسن بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي كان معاصراً لمحمد الخامس : يقول لسان الدين[33] :

«بعثني إلى بابه رسولاً على إثر بيعته وتمام أمره، وخاطباً إثره ودّه، مسترفداً من منحة قبوله، فألفيت بشراً مبذولاً، ورفداً ممنوحاً وعزّاً باذخاً، يضيق الزمان عن جلالته، وتقصّر الألسنة عن كنه وصفه فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام خمسة وخمسين (وسبعمائة) المذكور، وأنشدته بين يديه المخاطبة، ومضمّن الرسالة :

---

32 – ص 350–353.

33 [illegible]

خليفةَ الله ساعد القَدَرُ

عُلاكَ ما لاح في الدُّجا قَمَرُ

فأَحْسَبَ وكفى، واحْتَفَلَ واحتفى، وأفضتُ بين يديْ كرامته إلى الحضور معه في مقارعة العدا، ويوطّن نفسه الشجاعُ على ملاقاة الردى وخار الأسد عن المبارزة لما بلغ منه ثقافاً عن ورود المناوشة، ومضطلعاً بأعباء الحاملة، فتخطّاه إلى طائفة من الرجالة، أولي عُدّة، وذوي ذربة حمل نفسه متطارحاً كشهاب الرجم وسَرَك الدجى، وأخذته رماحهم بإبادته، بعد أن أردى بعضهم، وجُدِّلَ بين يدي السلطان، متخطباً في دمه وعرّض بعض الحاضرين، وأغرى بالنظم في ذلك، فأنشدته :

أنعام أرضك تقهرُ الآسادا

طبعاً كسا الأرواح والأجسادا

وخصائصٌ للّه بثّ ضروبَهَا

في الخلْق ساد لأجلها من سادا

إن الفضائل في حِماك بضائعٌ

لم تَخْشَ من بعد النِّفاق كسادا

كان الهزبرُ محارباً فجزيتَهُ

بجزاءِ من في الأرض رام فسادا

فابْغِ المزيدَ من الإله بشكره

وارغمْ بما خُوِّلْتَهُ الحسّادا

فاستحسن تأتّي القريحة وإمكان البديهة مع قيد الصفة وهيبة المجلس.

ووردت هذه القصيدةُ أيضاً في ديوان لسان الدين بن الخطيب المعروف بـ «الصيِّب والجَهام والماضي والكَهام»[34] وقدم لها لسان الدين بقوله :

«وقلت ارتجالاً بين يدي السلطان أبي عنان، وقد تجاولَ بين يديه

34 - ص. 464.

الأسد والثور فظهر الثور».

......

لا يُنكِرُ الفَضْلَ لِمُلاَّكِه
إلا امرؤٌ عطىً عليه الحسدْ
وحقٌ من جمَّع في الخلْق بين
النَّفْس والروح وبيْن الجَسَدْ
لأنْتَ يا مولايَ شَمْسُ العُلا
حقاً وهذا البرجُ برجِ الأسَدْ

ومن الشعراء الأندلسيين الذين وصفوا تلك المصارعة في ميادين الدولة المرينية أبو بكر أحمد بن من محمد بن جُزَيِّ الكلبي، فقد ترجم له المقّري في كتابه «أزهار الرياض»[35] وقال :

وعلِقَ بحفظي أن السلطان أبا عنان أطلّ من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد، على ما جرت به عادة الملوك، فقال بن جزيّ هذا[36] في وصف الحال ما يكاد تُعَدُّ معارضته من قبيل المحال :

لله يومٌ بدار المُلْك مرّ بِهِ
من العجائبِ ما لم يَجْرِ في خَلَدِ
لاح الخليفةُ في برجِ العُلا قمراً
يشاهِدُ الحَرْبَ بين الثورِ والأسَدِ

خاتمة :

يتبين من خلال هذه الدراسة أن مشهد مصارعة الثيران كان حاضراً في مخيلة الإنسان العربي منذ العصر الجاهلي كما دلّت عليه قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، وأن الظروف الاجتماعية والتاريخية

35 - 3\194.

36 - 3\195.

والطبيعية التي عاشها العرب في الأندلس والمغرب قد هيأت فرصة ممارسة هذه الرياضة ممارسة واقعية! فأطراف الصراع في الأندلس الثور والفارس الذي ينزل إلى الحلبة على فرسه، وأمّا في المغرب فأطراف المصارعة هم : الأسد (بدلاً من الكلاب الرومية عند الأندلسيين) والثور، والفارس.

وفي مصارعة الثيران في الأندلس كان التركيز يوجّه إلى الثور ومصيره، ولكن في المغرب يوجه التركيز إلى الأسد ومصيره، والسبب في ذلك أن الثور كان هو الذي ينتصر على الأسد في معظم الأحيان.

وتدل الإشارات القليلة في مقدمات القصائد التي تصف هذه الرياضة في المغرب والأندلس، أن مصارعة الثيران كانت عادة جارية عند ملوك البلدين.

ولا بد من الإشارة إلى أن المصادر العربية كادت أن تغفل الحديث عن هذه الرياضة لولا بعض القصائد التي قالها شعراء من الأندلس والمغرب في وصف احتفالات البلدين بالمناسبات المختلفة، وعلى الرغم من كثرة مؤلفات الأندلسيين والمغاربة عن الفروسية مثل مؤلفات ابن هذيل الغرناطي وابن جزيّ الكلبي وغيرهما، إلا أنّ هذه المؤلفات لم تتعرض لهذه الرياضة.

وأخيراً فإنني أتساءل : ما السبب في انحسار هذه الرياضة في بلاد المغرب، واستمرارها في إسبانيا؟